سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

تعليقات

الشَّيخ صالح بن عبد الله العُصيمي

علىٰ

نور البصائر والألباب

في العبادات والمعاملات والحقوق والآداب

للعلَّامة عبد الرَّحمن بن ناصر السِّعدي

مسودَّة

الدَّرس الرَّابع

الحقوق والآداب

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله الَّذي نوَّر البصائر بالعلوم، وزيَّن الألباب بمحاسن المنطوق والمفهوم، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ ما لاحت الأنوار، وعلىٰ آله وصحبه البررة الأخيار.

أمَّا بعد، فهذا الدَّرس الرَّابع في شرح كتاب نور البصائر والألباب للعلَّامة عبد الرَّحمن بن ناصر بن سعديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو الثَّاني في شرح قسم الحقوق والآداب، وقد انتهىٰ بنا البيان إلىٰ قوله منه رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فصلٌ في حقِّ الرَّسول ﷺ**).

[١] (**فصلٌ في حقِّ الرَّسول ﷺ**)

[٢] ثمَّ بعد حقِّ الله علينا: حقُّ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، [٣] الَّذي هو أولىٰ بنا من أنفسنا ووالدينا، [٤] وأرحم بنا وأشفق علينا من جميع الخلق، [٥] ولم يصل إلينا من الهدىٰ والعلم والخير شيءٌ إلَّا علىٰ يديه.

[٦] هو الَّذي وجدنا ضالِّين فهدانا الله به، [٧] وأشقياء غاوين فاستنقذنا الله به، [٨] ووجدنا مُوَجِّهين وجوهنا إلىٰ كلِّ كفرٍ وفسقٍ وعصيانٍ، فوجَّهنا الله به إلىٰ كلِّ خيرٍ وطاعةٍ وإيمانٍ، [٩] لم يبق خيرٌ إلَّا دلَّنا عليه، ولا شرٌّ إلَّا حذَّرنا عنه، [١٠] فله علينا أن نعلم أنَّه رسول الله حقًا، [١١] وأنَّه خاتم النَّبيِّين، لا نبيَّ بعده، [١٢] وأنَّه أُرسل رسالةً عامَّةً للمُرسَل إليهم، وعامَّةً في المُرسَل به.

فأمَّا المُرسَل إليهم؛ فإنَّه مُرسلٌ إلىٰ العرب وغيرهم من أصناف الأمم، علىٰ اختلاف أنواعهم، وأجناسهم، وإلىٰ الجنِّ.

وأمَّا ما أُرسل به: فإنَّه أُرسل ليبيِّن للخلق أصول دينهم، وفروعه، وظاهره، وباطنه؛ لإصلاح العقائد، والأخلاق، والأعمال، ولصلاح الدِّين، وصلاح الدُّنيا.

[١٣] ونعلم أنَّه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم وأعظمهم بيانًا [١٤] وأعرفهم بما يصلح للخلق علىٰ اختلاف طبقاتهم ومشاربهم، [١٥] فعلينا أن نؤمن به كما نؤمن بالله، [١٦] ونطيعه كما نطيع الله، [١٧] ونقدِّم محبَّته علىٰ أنفسنا ووالدينا والنَّاس أجمعين.

[١٨] وعلينا أن نتَّبعه في كلِّ شيءٍ [١٩] ولا نقدِّم علىٰ هديه وقوله قول أحدٍ وهديه كائنًا من كان، [٢٠] وعلينا أن نوقِّره ونعظِّمه وننصُره، [٢١] وننصر دينه بأنفسنا وأموالنا وألسنتنا، وبكلِّ ما نقدر عليه، [٢٢] وذلك كلُّه من أعظم منن الله علينا.

[٢٣] ونؤمن بأنَّ الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحدٍ غيره من الأوَّلين والآخرين، [٢٤] فهو أعلىٰ الخلق مقامًا وأعظمهم جاهًا وأقربهم وسيلةً، وأجلُّهم وأكملهم في كلِّ فضيلةٍ، [٢٥] وحقوقه ﷺ كثيرةٌ قد أفردت فيها المؤلَّفات الكثيرة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في هذه القطعة من كلامه خمسًا وعشرين جملةً:

فالجملة الأولىٰ قوله: (**فصلٌ في حقِّ الرَّسول ﷺ**) و(أل) في قوله: (**الرَّسول**) عهديَّةٌ، فالمراد به الرَّسول المرسَل إلينا، وهو محمَّدٌ ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾[المزَّمِّل:١٥] يعني محمَّدًا ﷺ لقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾[الفتح:٢٩] فالرَّسول المبعوث إلينا هو محمَّدٌ ﷺ فإذا أُطلق ذكر الرَّسول بيننا كان المراد به محمَّد بن عبد الله عليه الصَّلاة والسَّلام.

والرَّسول شرعًا يقع علىٰ معنيين:

أحدهما: عامٌّ، وهو رجلٌ إنسيٌّ حرٌّ أوحي إليه وبعث إلىٰ قومٍ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ ﴾[النِّساء:١٦٥] فإنَّه يعمُّ كلَّ مُرسَل إلىٰ الخلق.

والآخر: معنًىٰ خاصٌّ، وهو رجلٌ إنسيٌّ حرٌّ أوحي إليه وبعث إلىٰ قوم مخالفين، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾[الحجُّ:٥٢] فيختصُّ الرَّسول شرعًا بمعنىٰ لا يشاركه فيه النَّبيُّ.

ويُعلم ممَّا تقدَّم أنَّ الرَّسول يُطلق تارةً علىٰ معنًىٰ يندرج فيه كلُّ من بعثه الله ﷻ، فإنَّهم يُدعون بالمرسلين، وهو كلُّ من اتَّصف بالوصف المذكور في المعنىٰ العامِّ من كونه رجلًا إنسيًّا حرًّا أوحي إليه وبُعث إلىٰ قومٍ، فكلُّ المبعوثين هم رسلٌ بهذا الاعتبار، وأمَّا بالنَّظر إلىٰ المعنىٰ الخاصِّ فإنَّ الرَّسول يختصُّ ببعض المرسلين، فلا يكون كلُّ من بعثه الله ﷻ إلينا رسولًا، بل فيهم الرُّسل وفيهم الأنبياء، والفارق بين الرَّسول والنَّبيِّ بالمعنىٰ الخاصِّ تعلُّق إرسال الرَّسول بكونه مبعوثًا إلىٰ قومٍ مخالفين، أمَّا المبعوث إلىٰ قومٍ موافقين فإنَّه يُسمَّىٰ نبيًّا، وهذا أحسن الأقوال في بيان مسألة الرَّسول والنَّبيِّ؛ أنَّ الرَّسول يقع بمعنًىٰ عامٍّ يندرج فيه النَّبيُّ وهو الأوَّل، ويقع أيضًا بمعنًىٰ خاصٍّ يختصُّ ببعض الأنبياء دون بعضٍ، وهو إذا كانت بعثته إلىٰ قومٍ مخالفين له، أمَّا النَّبيُّ فإنَّه يُبعث إلىٰ القوم الموافقين له ممَّن لا يخرج عن قوله ويتَّبعه فيما يقول.

والجملة الثَّانية قوله: (ثمَّ بعد حقِّ الله علينا: حقُّ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ) أي بعد الحقِّ المتقدِّم ذكره آنفًا، وهو حقُّ الله ﷻ يأتي في التَّعظيم والإجلال حقُّ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه أفضل الخلق قدرًا وأعلاهم رتبةً، وقد أُمِر بطاعته كما أُمِر بطاعة الله ﷻ، وأُمِر بمحبَّته كما أُمِر بمحبَّة الله ﷻ، إلَّا أنَّ الفرق بينهما هو الفرق بين الخالق والمخلوق، فما يكون لله من طاعةٍ ومحبَّةٍ غير ما يكون لمحمَّدٍ ﷺ من طاعةٍ ومحبَّةٍ، فطاعة الله ومحبَّته عبادةٌ علىٰ وجه الاستقلال، وأمَّا طاعة محمَّدٍ ﷺ ومحبَّته فهي عبادةٌ علىٰ وجه التَّبع للامتثال لأمر الله ﷻ، فإنَّه هو الَّذي أمرنا بمحبَّة محمَّدٍ ﷺ وطاعته، فيأتي حقُّه ﷺ بعد حقِّ الله، وهو المقدَّم في الحقوق من المخلوقين، فلا يتقدَّمه أحدٌ من الخلق في حقِّه، وذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ثانيةً باسم النَّبيِّ في قوله: (حقُّ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ) ليجمع عند ذكره بين وصف الرِّسالة ووصف النُّبوَّة، ووصف الرِّسالة هو المذكور في قوله: (**فصلٌ في حقِّ الرَّسول**) ووصف النُّبوَّة هو المذكور في قوله: (حقُّ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ) فجُمع له ﷺ بين المرتبتين معًا، فهو رسولٌ نبيٌّ، وهذا أعلىٰ المقامات، وهو ﷺ أفضل الأنبياء بالإجماع ذكره أبو العبَّاس ابن تيميَّة الحفيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

وعلىٰ ما تقدَّم ذكره فإنَّ النَّبيَّ مرتبةٌ تكون دون الرَّسول لاختصاص بعثة النَّبيِّ بالقوم الموافقين، أمَّا الرَّسول فإنَّه يكون مبعوثًا إلىٰ قومٍ مخالفين، فله من الجهاد فيهم ما ليس للنَّبيِّ، فمن ارتقىٰ إلىٰ رتبة الرِّسالة فهو مقدَّمٌ علىٰ من وُقِفَ به عند رتبة النُّبوَّة، وأنبياء الله كثيرٌ، وأمَّا الرُّسل فإنَّهم دونهم في العدد، فالأنبياء لا حصر لهم، وأمَّا الرُّسل فثبت عند ابن حبَّان والدَّارميِّ في «الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة» والطَّبرانيِّ في «الكبير» من حديث زيد بن سلَّامٍ عن أبي سلَّامٍ منصورٍ الحبشيِّ عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكر

عدَّتهم فقال: «ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ رَسُولًا» فالرُّسل دون الأنبياء، وهو أعلىٰ منهم في المرتبة، ولم يثبت حديثٌ في عدِّ الأنبياء، ورُوي في ذلك حديثٌ مشهورٌ عن أبي ذرٍّ الغفاريِّ رواه ابن حبَّان في صحيحه إلَّا أنَّ في إسناده إبراهيم بن هشام الغسَّانيَّ أحد الكذَّابين.

والجملة الثَّالثة قوله: (الَّذي هو أولىٰ بنا من أنفسنا ووالدينا) أي أنَّ رسولنا ﷺ هو أولىٰ بأحدنا من نفسه ومن والديه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾[الأحزاب:٦] وجاء في «صحيح البخاريِّ» من حديث محمَّد بن فُليح بن سليمان عن أبيه فُليح بن سليمان عن عبد الرَّحمن بن أبي عَمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» فالنَّبيُّ ﷺ مُقدَّمٌ في ولايته علينا حتَّىٰ في ولاية أنفسنا علىٰ أنفسنا، فهو أحقُّ النَّاس بالتَّقديم في الحكم عليها بما أراه الله تعالى وأمره به، ولا يُقدَّم عليه في ذلك أحدٌ حتَّىٰ النَّفس.

والجملة الرَّابعة قوله: (وأرحم بنا وأشفق علينا من جميع الخلق) أي أنَّه ﷺ به من رحمةٍ وشفقةٍ علينا ما ليس لأحدٍ من الخلق، فهو أرحم الخلق بنا، كما قال تعالىٰ في خاتمة سورة التَّوبة: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[التَّوبة] فمن أشدِّ أوصافه وأبلغها رحمته ﷺ ولا سيما بالمؤمنين، والرَّحمة والشَّفقة معنيان يتَّفقان في إثبات الرِّقَّة واللُّطف، ويفترقان في أنَّ الشَّفقة يُلاحظ فيها حظُّ النَّفس، كرعاية هذا المعنىٰ في وصف الأبوين، فإنَّ الأبوين بهما شفقةٌ لملاحظة حظِّ نفسيهما من ولدهما، فيُحكم علىٰ أفعالهما وأقوالهما بأنَّ الحامل عليها الشَّفقة، وأمَّا الرَّحمة فإنَّها تتعلَّق بإحاطة العبد غيره أو نفسه بنصحٍ ورِقَّةٍ.

ومن أهل العربيَّة من يجعل الشَّفقة معنًىٰ ينضمُّ علىٰ الضَّعف، فيكون فيه ضعفٌ، وهذا الضَّعف معنًىٰ مجملٌ يُغني عنه ما سبق من أنَّ الشَّفقة تشتمل علىٰ ملاحظة حظِّ النَّفس، لأنَّ المشفق علىٰ أحدٍ يلاحظ حظَّه منه، كشفقة الوالد علىٰ ولده.

والجملة الخامسة قوله: (ولم يصل إلينا من الهدىٰ والعلم والخير شيءٌ إلَّا علىٰ يديه) أي لم يتَّصل بنا وننتفع بشيءٍ من الهدىٰ والعلم والخير إلَّا بما أجراه الله تعالى علىٰ يديه، قال الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾[المائدة]، فالنَّبيُّ ﷺ بُعث بالهدىٰ والعلم والخير الَّذي يخرج به النَّاس من ظلمات الضَّلال والجهل والشَّرِّ، وفي «الصَّحيحين» من حديث أبي أسامة حمَّاد بن أسامة عن بُريد بن عبد الله بن أبي بُردة عن جدِّه أبي بُردة عن أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي بِهِ اللهُ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ...» الحديث في «الصَّحيحين»، فالنَّبيُّ ﷺ مبعوثٌ إلينا بالهدىٰ والعلم والخير، فما وصل إلينا شيءٌ من ذلك إلَّا

ببلاغه وبيانه ﷺ.

والجملة السَّادسة قوله: (هو الَّذي وجدنا ضالِّين فهدانا الله به) فكان النَّاس ضُلَّالًا فأرسل الله إلينا محمَّدًا ﷺ فأخرجنا من الظُّلمات إلىٰ النُّور كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[إبراهيم:١] وفي «الصَّحيحين» واللَّفظ لمسلم من حديث عمرو بن يحيىٰ عن عبَّاد بن تميم عن عبد الله بن زيدٍ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ: أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي، وَمُفْتَرِقِينَ فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي**...» الحديث، وخرج ذكر الأنصار باعتبار المُخاطَب به ولا يختصُّ بهم، بل كلُّ الخلق حصل لهم من الخير ما حصل للأنصار، فإنَّهم كانوا ضُلَّالًا فهداهم الله عز وجل بمحمَّدٍ ﷺ، وكانوا عالةً فأغناهم الله بمحمَّدٍ ﷺ، وكانوا مفترقين فجمعهم الله عز وجل بمحمَّدٍ ﷺ، فهو حقيقٌ بقول ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: (بعثه الله عز وجل فأشرقت الأرض بنور دعوته بعد ظلمتها وتآلفت القلوب بعد فرقتها أهـ).

والجملة السَّابعة قوله: (وأشقياء غاوين فاستنقذنا الله به) أي كنَّا في حالٍ من الشَّقاء والغُواية فاستنقذنا الله بمحمَّدٍ ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾[البقرة] والهدىٰ الَّذي بعثه الله عز وجل للخلق هم الأنبياء الَّذين جاؤوهم، وحظُّ هذه الأمَّة منهم هو محمَّدٌ ﷺ.

والجملتان السَّادسة والسَّابعة فيهما بيان كمال النِّعمة الَّتي أنعمها الله عز وجل علينا في العلم والعمل، فبالعلم تندفع الضَّلالة، وبالهدىٰ تندفع الغُواية، وإذا فُقِدا حصل الضَّلال والغيُّ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾[النَّجم] فنفىٰ عنه الضَّلال في علمه والغُواية في عمله.

والجملة الثَّامنة قوله: (ووجدنا مُوَجِّهين وجوهنا إلىٰ كلِّ كفرٍ وفسقٍ وعصيانٍ، فوجَّهنا الله به إلىٰ كلِّ خيرٍ وطاعةٍ وإيمانٍ) أي كان النَّاس في شرٍّ وهلكةٍ بتردِّيهم في أنواعٍ من الكفر والفسق والعصيان، فوجَّههم الله عز وجل بمحمَّدٍ ﷺ إلىٰ كلِّ خيرٍ وطاعةٍ وإيمانٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾[الحجرات:٧] في سورة الحجرات، وإنَّما وقع تكريههم هذه الذُّنوب العظيمة من الكفر والفسوق والعصيان بما جاء به محمَّدٌ ﷺ من هدايتهم وإرشادهم إلىٰ ما فيه خير الدُّنيا والآخرة.

والجملة التَّاسعة قوله: (لم يبق خيرٌ إلَّا دلَّنا عليه، ولا شرٌّ إلَّا حذَّرنا عنه) فأبلغ ﷺ في البيان غايته، وأوضح المحجَّة وأقام الحجَّة، فبيَّن الخير ودلَّنا عليه، وبيَّن الشَّرَّ وحذَّرنا منه، ولم يتركنا ﷺ غُفْلًا يشتبه علينا الخير بالشَّرِّ، وعند ابن ماجه من حديث الوليد بن عبد الرَّحمن الجُرشيِّ عن جبير بن نفيرٍ عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**وَأَيْمُ اللهِ، لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ**» فتركنا النَّبيُّ ﷺ علىٰ أمرٍ بيِّنٍ لا يلتبس فيه الخير بالشَّرِّ، فالخير بيِّنٌ جليٌّ، والشَّرُّ بيِّنٌ جليٌّ، وإنَّما يقع الالتباس عند الخلق بحسب ما ينقصهم من العلم وسلامة القصد، فيلتبس عليهم الخير بالشَّرِّ، أمَّا مع كمال العلم وحسن

القصد وسلامته فإنَّ الخير يكون بيِّنًا والشَّرُّ يكون بيِّنًا، فبلاغه ﷺ أكمل البلاغ، وما أحسن قول أبي ذرٍّ الغفاريِّ رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ: (ما تركنا رسول الله ﷺ وطائرٌ يقلِّب جناحيه في السَّماء إلَّا وذكر لنا منه علمًا) رواه الطَّبرانيُّ وغيره من حديث فطر بن خليفة عن أبي الطُّفيل عن أبي ذرٍّ، وإسناده صحيحٌ.

والجملة العاشرة قوله: (فله علينا أن نعلم أنَّه رسول الله حقًا) وهذا شروعٌ في بيان ما يلزمنا من الحقوق؛ أن نعلم أنَّ محمَّدًا ﷺ رسول الله، كما قال تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾[المائدة] وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾[المائدة:١٥] فأضافه الله ﷻ إلىٰ نفسه تعظيمًا وتشريفًا، فمن حقِّه أن نعلم أنَّه رسول الله حقًّا مصدِّقين بخبر الله ﷻ، ولو كان كاذبًا في دعواه لما مكَّن الله ﷻ له فلانت له ودانت العرب وذلَّت رقابهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[الحاقَّة] فخبره عن ربِّه صادقٌ، ومن خبر ربِّه عنه أنَّه الرَّسول الَّذي أرسله الله ﷻ إلينا، فيجب علىٰ العبد أن يعلم أنَّه ﷺ رسول الله حقًّا.

والجملة الحادية عشرة قوله: (وأنَّه خاتم النَّبيِّين، لا نبيَّ بعده) أي أن نعلم أنَّه ﷺ خاتم النَّبيِّين، وخاتم: بفتح التاء وكسرها، وبهما قرئ في قول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ [وَخَاتِمَ] النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] فالخاتَم هو الَّذي يأتي آخرًا، والخاتِم هو بمنزلة الآلة الَّتي تكون طابعًا لما قبلها، ثمَّ نعلم أيضًا أنَّه لا نبيَّ بعده، فلا يكون بعده ﷺ نبيٌّ من الأنبياء، وفي «الصَّحيحين» من حديث محمَّد بن بشَّارٍ عن محمَّد بن جعفر عن شعبة عن فراتٍ القزَّاز عن أبي حازمٍ عن أبي هريرة رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في حديثٍ طويلٍ: «**وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**» أي لا يكون بعده ﷺ نبيٌّ يرسله الله ﷻ إلىٰ أهل الأرض، وإنزال عيسىٰ بن مريم في آخر الزَّمان كما ثبت في الأخبار الصَّحيحة ليس مشتملًا علىٰ بعثة نبيٍّ بعده ﷺ، فإنَّ عيسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام يُنزل من السَّماء فيكون تابعًا للنَّبيِّ ﷺ يحكم بدينه، ولا يأتي بدينٍ جديدٍ، فلا يكون عند نزوله موصوفًا بوصف نبوَّةٍ استجدَّ بعد النَّبيِّ ﷺ، وإنَّما له نبوَّته الَّتي تقدَّمت قبل النَّبيِّ ﷺ.

والجملة الثَّانية عشرة قوله: (وأنَّه أُرسل رسالةً عامَّةً للمُرسَل إليهم، وعامَّةً في المُرسَل به) ثمَّ فسَّر ذلك بقوله: (فأمَّا المُرسَل إليهم؛ فإنَّه مُرسلٌ إلىٰ العرب وغيرهم من أصناف الأمم، علىٰ اختلاف أنواعهم، وأجناسهم، وإلىٰ الجنِّ) فبعثته ﷺ هي إلىٰ النَّاس كافَّةً، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨] والنَّاس: إسمٌ يشمل الإنس والجنَّ، لأنَّ أصله النَّوس، والنَّوس هو الحركة والاضطراب، فالإنس ناسٌ والجنُّ ناسٌ، فهو ﷺ مبعوثٌ إليهم جميعًا، لا فرق بين عربيٍّ ولا عجميٍّ ولا أحمر ولا أسود، بل بعثته ﷺ تعمُّ الخلق عامَّةً، وهذا من مناقبه وخصائصه ﷺ؛ إذ كان من يُبعث قبله يُبعث إلىٰ قومه خاصَّةً، وبُعث النَّبيُّ ﷺ إلىٰ النَّاس كافَّةً، وفي حديث جابرٍ المتقدِّم في

«الصَّحيحين» من حديث هُشيم بن بشيرٍ عن سيَّارٍ أبي الحكم عن يزيدٍ الفقير عن جابرٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً» فهو ﷺ مبعوثٌ إلىٰ الخلق جميعًا إنسهم وجنِّهم، عربهم وعجمهم، مشركهم من الوثنيِّين أو من أهل الكتاب من اليهود والنَّصارىٰ، ثمَّ بيَّن عموم ما أُرسل به فقال: (وأمَّا ما أُرسل به: فإنَّه أُرسل ليبيِّن للخلق أصول دينهم، وفروعه، وظاهره، وباطنه؛ لإصلاح العقائد، والأخلاق، والأعمال، ولصلاح الدِّين، وصلاح الدُّنيا) أي أنَّه ﷺ جاء مبيِّنًا للنَّاس ما يفتقرون إليه في إقامة العبادة كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النَّحل:٤٤] فأُنزل عليه القرآن ليبيِّن للنَّاس ما نُزِّل إليهم ممَّا طولبوا به، فبيَّن ﷺ لهم أصول الدِّين وفروعه وظاهره وباطنه وعقائده وأحكامه، وجاء بما فيه صلاح الدِّين والدُّنيا معًا، وأصول الدِّين وفروعه لقبٌ يقع علىٰ معنيين:

أحدهما: أنَّ الأصول هي المسائل الَّتي لا تقبل الاجتهاد، وأنَّ الفروع هي المسائل الَّتي تقبل الاجتهاد.

والآخر: أنَّ الأصول هي الخبريَّات العقديَّة، والفروع هي العمليَّات الطَّلبيَّة.

والأوَّل هو الَّذي دلَّ عليه الشَّرع بخلاف الثَّاني، فإنَّه اصطلاحٌ أحدثته المعتزلة وغيرهم ورتَّبوا عليه أحكامًا من التَّكفير وغيره، فالصَّحيح أنَّ إطلاق الأصول والفروع يجوز علىٰ المعنىٰ الأوَّل، وأمَّا المعنىٰ الثَّاني فهو الَّذي استنكره أبو العبَّاس ابن تيميَّة وتلميذه أبو عبد الله ابن القيِّم في كتاب «إعلام الموقِّعين».

فإذا قيل: أصول الدِّين وفروعه علىٰ إرادة ترتيب المسائل أنَّ منها ما لا يقبل الاجتهاد وهو الأصول، وأنَّ منها ما يقبل الاجتهاد وهو الفروع كان ذلك صحيحًا، لا فرق بين تعلُّقها بالخبريَّات العقديَّة ولا بالطَّلبيَّات العمليَّة، فمثلًا اعتقاد وجود الملائكة هو من الأصول الَّتي هي من الخبريَّات، وكون الصَّلوات المكتوبة خمسًا في اليوم واللَّيلة هو من الأصول الطَّلبيَّات العمليَّات، واعتقاد رؤية الكفَّار ربَّهم في الآخرة هو من الاعتقاديَّات الَّتي يجري فيها الاجتهاد، فلا يكون من الأصول، بل يكون من الفروع مع تعلُّقه بالاعتقاد، وكذا حكم صلاة الوتر، فإنَّ القول فيها إيجابًا أو استحبابًا يكون من جنس الخلاف في المسائل الاجتهاديَّة، ومردُّها هنا إلىٰ العمليَّات الطَّلبيَّة، ومُدرك هذه المسألة من الأصول والفروع ممَّا دلَّت عليه أدلَّة الشَّرع هو ردُّ ذلك إلىٰ قبول المسألة الاجتهاد أو عدمها، أمَّا تعليق ذلك بكون الأصول ما رجع إلىٰ الاعتقادات الخبريَّة، وأنَّ الفروع ما رجع إلىٰ العمليَّات الطَّلبيَّة فهذا مذهبٌ حادثٌ، وولَّد عليه أربابه مسائل فاسدةً تتعلَّق بالكفر والإيمان وغيرها من المسائل.

والجملة الثَّالثة عشرة قوله: (ونعلم أنَّه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم وأعظمهم بيانًا) أي من الحقِّ الواجب علينا أن نعلم أنَّ الرَّسول ﷺ هو أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم وأعظمهم بيانًا، وفي «صحيح البخاريِّ» من حديث عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا» ورواه مسلمٌ من وجهٍ آخر عن عائشة رضي الله عنها، فالنَّبيُّ ﷺ هو أكمل هذه الأمَّة

بالعلم والعمل، فقوله: «**أَتْقَاكُمْ**» إشارةٌ إلىٰ كمال العمل، وقوله: «**وَأَعْلَمَكُمْ**» إشارةٌ إلىٰ كمال العلم، وهو ﷺ لكمال علمه وعمله أصدق الخلق وأنصحهم وأعظمهم بيانًا، وتقدَّم حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه عند ابن ماجه وإسناده حسنٌ، وفيه قوله: «**وَأَيْمُ اللهِ، لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ البَيْضَاءَ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا**» قال أبو الدَّرداء بعده: (صدق والله رسول الله ﷺ، لقد تركنا علىٰ البيضاء، ليلها ونهارها سواءٌ).

وإنَّما يحصل الضَّلال عند فقد العلم أو سوء القصد في البيان، والنَّبيُّ ﷺ منزَّهٌ عن هذين المقامين، فكان علمه كاملًا وقصده في إصلاح الخلق وافرًا، فكان أنفع الخلق للخلق، أشار إلىٰ هذا المعنىٰ ابن القيِّم في «الصَّواعق المُرسلة».

والجملة الرَّابعة عشرة قوله: (وأعرفهم بما يصلح للخلق علىٰ اختلاف طبقاتهم ومشاربهم) أي أنَّه ﷺ أعرف الخلق بما يحصل به صلاحهم في أمور دينهم ودنياهم (علىٰ اختلاف طبقاتهم) أي أقدارهم عزًّا وضعفًا وغنًىٰ وفقرًا، (ومشاربهم) أي ما تميل إليه نفوسهم وترغب فيه، فهو ﷺ أعرف النَّاس بما يصلح للخلق مع الاختلافات اللَّاحقة بهم في طبقاتهم ومشاربهم، ومن أحسن مسالك أهل العلم في الجمع بين الأحاديث الَّتي رويت عن جماعةٍ أنَّهم أتوا النَّبيَّ ﷺ فاستوصوه أو سألوه فأرشد كلًّا إلىٰ أمرٍ من الأمور أنَّه أرشد كلَّ واحدٍ منهم إلىٰ الأصلح له، وهذا اختيار أبي العبَّاس ابن تيميَّة وأبي الفضل ابن حجرٍ رحمهما الله تعالىٰ، فمثلًا حديث عبد الله بن بُسرٍ عند التِّرمذيِّ وغيره أنَّه قال: يا رسول الله إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيءٍ أتشبَّث به، فقال: «**عَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ**» وإسناده قويٌّ، فأرشد عبد الله بن بُسرٍ رضي الله عنه إلىٰ الأصلح له، ووقع غيره مع غيره، فكان يرشد كلَّ أحدٍ إلىٰ ما يصلح له وما يقوم به دينه.

والجملة الخامسة عشرة قوله: (فعلينا أن نؤمن به كما نؤمن بالله) أي يجب علينا في حقِّه ﷺ أن نؤمن به كما آمنَّا بالله عز وجل، لكنَّ الإيمان بالله إيماننا بالله معبودًا، وإيماننا به ﷺ هو إيماننا به رسولًا، وهذا المعنىٰ هو المُستكنُّ في الشَّهادتين، فإنَّنا نقول: (أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله) فأشهد لله بالعبادة، وأشهد لمحمَّدٍ ﷺ بالرِّسالة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[النِّساء:١٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾[الحجرات:١٥].

والجملة السَّادسة عشرة قوله: (ونطيعه كما نطيع الله) أي من حقِّه علينا أن نطيعه ﷺ كما نطيع الله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[النِّساء:٥٩] وإعادة الأمر بالطَّاعة تنبيهٌ إلىٰ أنَّ طاعة الرَّسول ﷺ من طاعة الله عز وجل، ولذلك صُرِّح بها في قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النِّساء:٨٠] أي أنَّ من أطاع الرَّسول ﷺ بخبره وأمره فقد أطاع الله سبحانه وتعالى، وطاعة الله عز وجل لا تمكن إلَّا

بطاعة الرَّسول ﷺ.

والجملة السَّابعة عشرة قوله: (ونقدِّم محبَّته علىٰ أنفسنا ووالدينا والنَّاس أجمعين) أي من حقِّه علينا أن نقدِّم محبَّته ﷺ علىٰ كلِّ أحدٍ من والدٍ وولدٍ والنَّاس أجمعين، بل علىٰ النَّفس أيضًا، وفي «الصَّحيحين» من حديث شعبة بن الحجَّاج عن قتادة عن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» وفي «الصَّحيح» أيضًا من حديث الزُّهريِّ عن زهرة بن معبدٍ عن عبد الله بن هشامٍ رضي الله عنه قال: كنَّا في سفرٍ، وكان النَّبيُّ ﷺ آخذًا بيد عمر، فقال عمر رضي الله عنه: لأنت يا رسول الله أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلَّا من نفسي، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا يَا عُمَرُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**» فقال عمر: الآن يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**»، فيجب علىٰ العبد أن يقدِّم محبَّة النَّبيِّ ﷺ علىٰ محبَّة كلِّ أحدٍ حتَّىٰ علىٰ نفسه الَّتي بين جنبيه، وهذا المقام مقامٌ عظيمٌ إذ فيه طرح حظِّ النَّفس لحقِّ الرَّسول ﷺ، ولا يمكن للعبد أن يتجرَّد فيه إلَّا بدوام المجاهدة؛ لأنَّ النَّفس تنازعه إلىٰ مألوفاتها، فلا يمكنه أن ينقلع منها متجرِّدًا في اتِّباع الرَّسول ﷺ إلَّا إذا دامت رعايته لتقديم حقِّ الرَّسول ﷺ علىٰ حقِّ نفسه.

والجملة الثَّامنة عشرة قوله: (وعلينا أن نتَّبعه في كلِّ شيءٍ) أي من حقِّه علينا ﷺ أن نتَّبعه بالاستجابة له في كلِّ شيءٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾[الأنفال:٢٤] فمن حقِّ الرَّسول ﷺ علينا دوام اتِّباعه في كلِّ شيءٍ، ولا ينجو العبد إلَّا بذلك، فمن اتَّبع النَّبيَّ ﷺ نجا، ومن أعرض عن اتِّباعه هلك، قال الإمام مالكٌ: (السُّنَّة سفينة نوحٍ؛ من ركبها نجا، ومن تركها غرِق) فمنجاة العبد في هذه الدُّنيا باتِّباع النَّبيِّ ﷺ في كلِّ شيءٍ، وتقديم طاعته علىٰ كلِّ أحدٍ، وفي «صحيح البخاريِّ» قال: حدَّثنا محمَّد بن سنانٍ قال: حدَّثنا محمَّد بن فُليح عن أبيه فُليح بن سليمان عن هلال بن عليٍّ عن عطاءٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ**»، قالوا: ومن يأبىٰ يا رسول الله؟، قال: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**»، فمن اتَّبع النَّبيَّ ﷺ فإنَّه ينجو وهو الصَّادق في محبَّة الله ﷻ، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران:٣١] فجعل محبَّته ﷻ معلَّقةً باتِّباع النَّبيِّ ﷺ، وكان الحسن البصريُّ يسمِّي هذه الآية آية المحنة، أي الَّتي امتحن الله ﷻ بها الخلق بصدق محبَّتهم له ﷻ، قال أبو عبد الله ابن القيِّم: لمَّا كثر المُدَّعون للمحبَّة طولبوا بإظهار الحجَّة، والحجَّة: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

والجملة التَّاسعة عشرة قوله: (ولا نقدِّم علىٰ هديه وقوله قول أحدٍ وهديه كائنًا من كان) أي من حقِّ النَّبيِّ ﷺ علينا أن نقدِّم هديه وقوله علىٰ هدي وقول كلِّ أحدٍ، وألَّا نقدِّم عليه أحدًا سواه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾[الحجرات:١] فلا يجوز للعبد أن يقدِّم علىٰ قول الله وقول رسوله ﷺ قول أحدٍ أو هديه كائنًا من كان، ولو كان ممَّن صحب النَّبيَّ ﷺ، فإنَّ كلَّ من دون

النَّبيِّ ﷺ من الخلق تابعٌ له، فلا يُرفع إلىٰ مرتبةٍ يضاهي فيها النَّبيَّ ﷺ ويزاحمه ولو كان من أعظم الخلق، وعند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في كتاب «طاعة الرَّسول» والله أعلم، لأنَّ هذا الأثر ممَّا فُقد ولم يوجد بهذا النَّصِّ إلَّا في نقلٍ نقله أبو العبَّاس ابن تيميَّة في موضعٍ له قال: قال أحمد، وليس هذا النَّقل في شيءٍ من كتب الإمام أحمد، والإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ له كتابٌ اسمه «طاعة الرَّسول»، فيظهر أنَّه منه، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: حدَّثنا عبد الرَّزاق عن معمرٍ عن الزُّهريِّ عن سالمٍ عن عبد الله بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: يوشك أن تنزل عليكم حجارةٌ من السَّماء، أقول: قال الله ورسوله، وتقولون: قال أبو بكرٍ وعمر، وإسناده قويٌّ.

وفي رواية معمرٍ عن الزُّهريِّ كلامٌ لا ينزِّلها عن رتبة الصِّحَّة، ورُوي من غير هذا الوجه أيضًا عند ابن حزمٍ في كتاب «حجَّة الوداع» وغيره، وفيه الإنباه إلىٰ شدَّة خطورة تقديم طاعة غير النَّبيِّ ﷺ عليه ولو كان ذلك المُتَّبَع هو وزيراه أبو بكرٍ وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وأرضاهما.

والجملة العشرون قوله: (وعلينا أن نوقِّره ونعظِّمه وننصُره) كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح] ومعنىٰ التَّعزير: النُّصرة، والتَّوقير: الإجلال والإعظام له ﷺ.

والجملة الحادية والعشرون قوله: (وننصر دينه بأنفسنا وأموالنا وألسنتنا، وبكلِّ ما نقدر عليه) أي من حقِّه علينا ﷺ أن ننصر دينه الَّذي بعثه الله ﷻ به إلينا بكلِّ ما نستطيع بأنفسنا وأموالنا، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[محمَّد:٧] ونصرته ﷺ تكون بنصرة دينه الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ، وذلك بإقامة أحكامه، وهذا هو الحفظ المأمور به في وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لابن عبَّاسٍ الَّتي رواها التِّرمذيُّ من حديث حنشٍ الصنعانيِّ عن قيس بن الحجَّاج عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**» فحفظ الله ﷻ يكون بحفظه، وبحفظ أمر الله ﷻ تكون نصرة دين النَّبيِّ ﷺ، ويجب علىٰ العبد أن يبذل في ذلك ما يستطيعه من نفسه وماله ولسانه، فعند أبي داود في سننه من حديث حمَّاد بن سلمة عن حميدٍ عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**» وإسناده صحيحٌ، فيجب علىٰ العبد أن يُعمل قوَّته الَّتي يقدر عليها في نصرة دين النَّبيِّ ﷺ، وذكر المشركين خرج مخرج الغالب، لأنَّهم هم الَّذين يُجاهَدون، وكذا كلُّ عدوٍّ لله ورسوله ﷺ من المشركين أو المنافقين أو غيرهم، فإنَّه يجب علىٰ العبد أن يبذل وَسعه فيما قدَّره الله ﷻ عليه من مجاهدتهم؛ لأنَّ الأمر بالمأمورات مناطٌ بالقدرة، قال الله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التَّغابن:١٦] وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[الطَّلاق:٧] فهذا معنىٰ قوله: (وبكلِّ ما نقدر عليه).

والجملة الثَّانية والعشرون قوله: (وذلك كلُّه من أعظم منن الله علينا) أي كلُّ ما تقدَّم ممَّا يتعلَّق ببعثته

ﷺ وحقِّه كلُّه من أعظم منَّة الله ﷻ علينا، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[آل عمران:١٦٤] فمن أعظم إنعام الله ﷻ علينا بعثة هذا الرَّسول ﷺ إلينا، واختصَّ الله ﷻ هذه الأمَّة المرحومة بهذا الرَّسول الكريم الرَّؤوف الرَّحيم، فعُدَّت منَّةً عظيمةً علىٰ الخلق، والمنَّة هي النِّعمة العظيمة، فما وُصف بكونه منَّةً فهو من أعظم النِّعم، فالنِّعم علىٰ درجاتٍ أعلاها المنَّة وهي النِّعمة العظيمة، وأعظم منن الله ﷻ علينا أن بعث إلينا محمَّدًا ﷺ، فإنَّ هذه الأمَّة خُصَّت بين الأمم قاطبةً بالتَّشريف والتَّقديم فصارت أفضل الأمم وأعظمها في أمورٍ منها أنَّ الرَّسول ﷺ المبعوث إليها هو محمَّدٌ ﷺ، قال القاضي عياض:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهَا ... وَكِدْتُ بِأَخْمَصَيَّ أَطَأُ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَّا

والجملة الثَّالثة والعشرون قوله: (ونؤمن بأنَّ الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحدٍ غيره من الأوَّلين والآخرين) أي نعتقد جازمين بأنَّ الله ﷻ جمع للنَّبيِّ ﷺ من الفضائل والخصائص والكمالات ما ليس لغيره، والفضائل: جمع فضيلةٍ، وهي الكمال الزَّائد الَّذي يكون في النَّفس، فإن تعلَّق بغيره سُمِّي فواضل، فالفضائل الكمالات المتعلِّقة بنفسه، والفواضل الكمالات المتعلِّقة بغيره، فالأولىٰ لازمةٌ والثَّانية متعدِّيةٌ، والخصائص فعيلةٌ من الخصوص، فهي جمع خَصِيصَةٍ فعيلةٌ من الخصوص، والمراد بالخصوص تعلُّقه ببعض الأفراد لا بكلِّها، فإنَّ العموم يستغرق جميع الأفراد، وأمَّا الخصوص فإنَّه يتعلَّق ببعض الأفراد، فالمراد بالتَّخصيص الانفراد، فخصائصه ﷺ ما انفرد به عن غيره، والكمالات جمع كمالٍ، والكمال: بلوغ الغاية، والنَّبيُّ ﷺ صار له أكمل الكمال البشريِّ، ما الدَّليل علىٰ أنَّ النَّبيِّ ﷺ صار له أكمل الكمال البشريِّ؟ حديث: «**إِنَّ أَعْلَمَكُمْ بِاللهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ أَنَا**» فأعلىٰ الكمال البشريِّ هو للنَّبيِّ ﷺ، فيكون الكمال للبشر باعتبار ما لهم من العلم والعمل وما ينشأ عن ذلك من دعوة الخلق وهدايتهم والصَّبر عليهم، فالكمال نوعان:

أحدهما: كمالٌ إلهيٌّ لا سبيل إليه.

والثَّاني: كمالٌ بشريٌّ، وعماده العلم والعمل، وما يترتَّب علىٰ ذلك من دعوة الخلق وهدايتهم والصَّبر عليهم، وهي الأوصاف المذكورة في سورة العصر، فإذا قيل: لا كامل إلَّا اللهُ، قيل: يعني الكمال الإلهيَّ، أمَّا الكمال البشريُّ فهذا ممكنٌ، في حديثٍ كلُّكم تحفظونه: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعَةٌ**...» الحديث في «الصَّحيح»، فهذا يدلُّ أنَّ الكمال ممكنٌ، الآن بعض النَّاس يقول ما يمكن، الكمال لا يُدرَك، هذا من ضعف الهمم وقلَّة العلم بالشَّرع، الكمال يُدرَك، لكنَّه يحتاج إلىٰ مُجاهدةٍ، فلا يصل إليه كلُّ أحدٍ، لكن يمكن الوصول إليه، والكمال الَّذي يُدرَك هو الكمال البشريُّ الَّذي يكون حسب الوسع والطَّاقة البشريَّة، وأمَّا الكمال الإلهيُّ، فإنَّه لا يمكن كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ

ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام:١٠٣] أي لا تحيط به لكماله ﷻ.

والجملة الرَّابعة والعشرون قوله: (فهو أعلىٰ الخلق مقامًا وأعظمهم جاهًا وأقربهم وسيلةً، وأجلُّهم وأكملهم في كلِّ فضيلةٍ) أي أنَّه ﷺ (أعلىٰ الخلق) أي أرفعهم درجةً (وأعظمهم جاهًا) أي أجلُّهم قدرًا (وأقربهم وسيلةً) أي أدناهم إلىٰ الله ﷻ فيما يتقرَّبون به من الطَّاعات، قال الله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[الإسراء:٥٧]، أي ما يتقرَّبون به إلىٰ الله ﷻ، وثبت في «صحيح مسلم» من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ**» الحديث عند مسلمٍ بمعناه.

وقوله: (وأجلُّهم وأكملهم في كلِّ فضيلةٍ) أي أعظمهم وأعلاهم في كلِّ فضيلةٍ.

والجملة الخامسة والعشرون قوله: (وحقوقه ﷺ كثيرةٌ قد أفردت فيها المؤلَّفات الكثيرة) لعلَّها الكبيرة، وعلىٰ العموم النُّسخة الَّتي معي قابلناها علىٰ المخطوط لكن كان الأتمَّ أن تكون: (وحقوقه ﷺ كثيرةٌ قد أُفردت فيها المؤلَّفات الكبيرة)، أي أنَّ حقوق النَّبيِّ ﷺ لا يتأتَّىٰ حصرها فيما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، بل لجلالة قدرها وكثرة عدِّها أُفردت في كتبٍ مؤلَّفةٍ أشهرها كتاب «الشِّفا في حقوق المصطفىٰ ﷺ» للقاضي عيَّاض بن موسىٰ اليحصُبيِّ من أئمَّة المالكيَّة، وهو كتابٌ عظيم النَّفع جليل الوقع، وكان النَّاس يقرؤونه فيما سلف، ثمَّ ضعفت الهمم وانقطعت العناية بمثل هذه الكتب، وعليه شرحٌ عظيم النَّفع جدًّا وهو شرح الشِّهاب الخَفاجيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فله كتابٌ في شرح «شفا» القاضي عيَّاضٍ، وله شروحٌ عديدةٌ لكن من أوسعها وأكثرها نفعًا هذا الكتاب، وقد اختصره الشَّيخ صالح بن أحمدٍ الشَّاميُّ، وكذلك الشَّيخ عبد الله الفريديُّ فاختصراه واقتصرا علىٰ الأحاديث الصَّحيحة والحسنة الثَّابتة فيه، وهذا الكتاب فيه جملةٌ من مسائل الإيمان والتَّكفير الَّتي تتعلَّق بالاستهزاء بالدِّين والمقام النَّبويِّ نقل فيها المصنِّف الإجماع، فالكلُّ معوِّلٌ عليها مع جهل كثيرين بقدر هذا الكتاب، وقد نقل عنه أبو العبَّاس ابن تيميَّة وغيره كلامه في هذا المقام، فهو كتابٌ عظيمٌ جدًّا ينبغي أن يعتني طالب العلم بقراءته علىٰ شيخٍ ويتفهَّم معانيه مع مطالعة شروحه كشرح الشُّمُنِّيِّ أو شرح الشِّهاب الخفاجيِّ أو شرح المُلَّا علي القاري رحمهم الله تعالىٰ.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب، وإن شاء الله تعالىٰ نستكمل الكتاب في اللِّقاء القادم: يوم الخميس ٣\٢٦ إن شاء الله يكون لقاؤنا كهذا اللِّقاء.